الفصل الأول

جهود العلماء فى حفظ السنة
«العناية بحفظ السنة ونشرها»

لقد أدرك سلفنا قيمة السنة وأهميتها، فأولوها عناية فائقة، بحفظها، ونشرها، وتبليغها.

وفى أعناقنا - نحن - اليوم أمانة ضخمة تمليها علينا عقيدتنا وواجبنا تجاه خدمة السنة الشريفة حفظا لها وتبليغا وعملا بها وتطبيقاً.

وإذا نظرنا إلى جهاد رسولنا صلوات الله وسلامه عليه فى سبيل الله، ومن أجل هذا الدين وتبليغه، وتوضيحه ونشره.. ونظرنا إلى جهود الصحابة والتابعين، وأتباع التابعين والأئمة المجاهدين المخلصين.. ورجال السنة الذين جاهدوا وكابدوا، وعانوا فى سبيل تدوينها وحفظها، وشرحها وخدمتها حتى وصلت إلينا جيلا بعد جيل، تتألق بالهدى الإلهى، وتشع بنور النبوة، وتنقل إلينا كل قول وفعل للرسول ﷺ.

إذا نظرنا إلى كل هذا: أحسسنا بعظم المسئولية وضخامة التبعة، وأحسسنا بواجبنا الذى لا يعادل - لو قمنا به على أكمل وجه - معشار ما قاموا به.

ففى عهودنا: تنوعت وسائل الكتابة، والطباعة والإعلام وبين أيدينا أمهات الكتب والدواوين المستوعبة، والجوامع والمسانيد، التى لم تكن متوفرة قبل ذلك.

ومن أجل هذا: فإن واجبنا تجاه السنة الشريفة يلزمنا بأن نقوم بدراستها، والذود عن حماها.. ورد كل ما يثار من أباطيل الأعداء وشبههم، ومن محاولاتهم اليائسة فى الوضع والدس والاختلاق.

ولقد لعبت أيدى أعداء السنة أدواراً كبيرة، حدت بجهابذة الحديث إلى تنقيته من كل دخيل، ورد كل افتراء، وكان علينا اليوم أن نتعرف على همم سلفنا، والعوامل التى دفعتهم لحفظ السنة الشريفة ونشرها، حتى نترسم

خطاهم.. ونتعرف على أول الطريق، لتكون مسيرة الخلف موصولة بالسلف. وأن أول الطريق: يبدأ مع بداية هذه الرسالة الخاتمة.. فقد قام الرسول الكريم بأداء الرسالة خير قيام، وأدى الأمانة الإلهية على أكمل وجه، وتحمل في سبيلها ما تحمل.

ولقد صبر صلوات الله وسلامه عليه، واستعذب الأذى حتى أرسى دعائم الدعوة، وأقام دين الله تعالى.

وهناك عوامل كثيرة تضافرت في دفع المسلمين وحفزهم لخدمة الحديث، وهذه العوامل جعلتهم يقبلون إقبالاً شديداً على السنة الشريفة ودراستها.

وعلى رأس هذه العوامل: «القدوة الحسنة».

وقد تمثلت هذه القدوة: في رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، استجابة لقول الله تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** ﴾ [الأحزاب : ٢١]، وهذا القدوة: لا تتأتى إلا بمعرفة أقوال الرسول ﷺ، وأفعاله وتقريراته، وصفاته، ويتبع المعرفة:

العلم بالسنة، وحفظها وفهمها.

ويتبع العلم: العمل بما يعلمون.

ولقد وجد المسلمون في القرآن والسنة حثاً على العلم والعمل، والسعي والبحث، والسفر والرحلة من أجل تحصيل العلم وتبليغه، ونشر السنة وحفظها، وتبليغها للناس.

قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾

[التوبة :١٢٢]

* وكان المسلمون حينئذ يتمتعون باستعداد فطري قوي وذوق عربي أصيل، وذاكرة واعية أمينة، حركت هممهم إلى تلقف السنة بشوق ونهم، وحب وإخلاص.

وكان لهذه العوامل وغيرها أثرها.. فالتفوا حول رسولهم صلوات الله وسلامه عليه، ونهلوا من معين سنته المطهرة، التي وجدوا فيها مادة خصبة: لدينهم ودنياهم وأخراهم، تكفل لهم سعادة الدارين، لأن أحكامها الكريمة، وآدابها الفاضلة تتصل بالعقيدة والشريعة والأخلاق.

بل إنها تتصل بجميع آدابهم وأحوالهم ومعاملاتهم، ليكونوا على نور وهدى.

والمتتبع لمجالس السنة المطهرة في رحاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه، يجدها: كانت تشع بالنور والهدى.

وقد حرص الرسول ﷺ على تبليغ المسلمين سنته الشريفة، وحبب إلى أصحابه - رضوان الله عليهم - حفظ الحديث وتبليغه.

ووضع منهج التلقي والتحديث، وأرسى بينهم قاعدة التثبت العلمي التي ساروا عليها، واتخذوها منهجاً في الرواية بعد ذلك.

وسار الصحابة في حرصهم على حضور مجالس الرسول ﷺ إلى جانب ما يقومون به من أمور المعاش.

وإذا تعذر على بعضهم الحضور، يتناوب مع غيره، كما كان يفعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال:

«كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد، وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ، ينزل يوماً، وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك».

ولم يكن يتسنى للجميع سماع الحديث من الرسول ﷺ، لما كانوا يقومون به من أعمال، فكانوا يطلبون ما يفوتهم سماعه من أقرانهم، وكانوا يشددون على من يسمعون منه.

كما كانت القبائل البعيدة تبعث إلى النبي ﷺ من يتعلم أحكام الدين منه، ثم يعود إليهم، ليرشدهم ويعلمهم.

وهكذا: عاش الصحابة – رضوان الله عليهم – مع رسولهم صلوات الله وسلامه عليه يشاهدون تصرفاته: فى عباداته ومعاملاته، وإذا عن لهم أمر من الأمور، يحتاجون إلى بيانه، رجعوا إليه يسألونه، فيجيبهم ويفتيهم.

كما كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه، يعلم النساء أمور الدين ويخصص وقتا يجلس لهن فيه، وكانت أمهات المؤمنين على درجة عالية من العلم، لذا وجد النساء عندهن الإجابة على أمورهن وأحوالهن، التى يمنعهن الحياء من التصريح بها أمام الرسول ﷺ، كالأمور الخاصة بهن.

وإلى جانب هذه العوامل السابقة: كانت هناك طرق كثيرة ساعدت على انتشار السنة، قوى نشاطها: اجتهاد الرسول ﷺ فى التبليغ، وأثر أمهات المؤمنين الذى لا ينكر.

* ومن هذه العوامل أيضاً: بعوثه صلوات الله وسلامه عليه إلى القبائل، لتعليمهم وإرشادهم.. وكتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام.

كما كان لغزوة الفتح أثر كبير فى نشر كثير من السنن حيث قام النبى ﷺ خطيباً بين ألوف المسلمين وغيرهم. معلنا العفو العام عن أعدائه، مبينا كثيرا من الأحكام التى تناقلها الناس، وحملوا توجيهه وإرشاده إلى أهليهم.

وبعد أن استتب الأمر يمم النبى ﷺ وجهه شطر المسجد الحرام، حاجا، ومعه ألوف من المسلمين وألقى فيهم خطبته الجامعة، التى تعتبر – بحق – أعظم منهاج ختامى للدعوة الإسلامية.

فقد تضمنت كثيراً من الأحكام والسنن، وبين فيها رسول الله ﷺ مناسك الحج، ووضع من آثار الجاهلية ما أبطله الإسلام، فكانت هذه الخطبة العظيمة، من أعظم عوامل انتشار السنة بين كثير من القبائل والعشائر.

ومن المعلوم: أن الصحابة – رضوان الله عليهم – لم يكونوا فى مستوى واحد من العلم، بل كانت تتفاوت درجاتهم العلمية ما بين مكثر ومقل، ومتوسط، تبعاً لظروف كل واحد منهم.

وكان من بينهم البدوى والحضرى، والمنقطع للعبادة والمشتغل بأمر المعاش، وكان أكثرهم علما أسبقهم إسلاما، كالخلفاء الأربعة، وعبد الله بن مسعود.. أو أكثرهم ملازمة للرسول صلوات الله وسلامه عليه: كأبى هريرة، أو أكثرهم كتابة: كعبد الله بن عمرو بن العاص.

وكان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يدعون ربهم سبحانه أن يرزقهم علما لا ينسى.. فكانوا لا يقتصرون على همتهم وقوتهم، وذاكرتهم، ولكنهم كانوا يجمعون إلى جانب العلم العمل ويكثرون من الدعاء، حرصا منهم على حفظ السنة الشريفة، والوقوف على دقائق الدين وعلومه وأحكامه.

* وأكثر الصحابة حديثا وحفظاً: (أبو هريرة) رضى الله عنه.. وفى «المستدرك» عن زيد بن ثابت قال: «كنت أنا وأبو هريرة وآخر عند النبى ﷺ، فقال: أدعوا، فدعوت أنا وصاحبى، وأمَّن النبى ﷺ. ثم دعا أبو هريرة فقال: اللهم إنى أسالك مثل ما سألك صاحباى، وأسألك علما لا ينسى، فأمَّن النبى ﷺ.

فقلنا: ونحن يا رسول الله كذلك.

فقال: سبقكما الغلام الدوسى».

ويتضح من كل ذلك: أن السمات العامة للمسلمين آنئذ تبرز لنا الدوافع القوية التى حفزتهم لتلقى السنَّة الشريفة، حتى أودعوها حوافظهم القوية، وصدورهم الأمينة، مما جعل السنَّة محفوظة جنباً إلى جنب مع القرآن الكريم.

* وواجبنا اليوم: أن نحرص على سنة رسول الله ﷺ، وننفى عنها تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين وأن نصونها من سهام أعداء هذا الدين، الذين يتربصون به الدوائر، أولئك الأعداء، الذين أدركوا أن سر عظمة هذه الأمة - سلفاً وخلفاً - قد تمثل فى الكتاب والسنَّة فهاجموا هذين الأصلين، وحاول أعداء الإسلام اقتحام القرآن الكريم وتحريفه، ولكنهم باءوا بالفشل الذريع فقد تكفل الله بحفظه، ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩].

كما حاولوا الدس فى كتب التفسير والحديث. وقامت جمعياتهم السرية، وغزوهم الفكرى، مستخدمين أبواق الاستشراق الملحد، محاولين رفع معاول الهدم، ومشهرين الأقلام المسمومة، للطعن فى علوم الدين، وعلى رأسها، السنَّة الشريفة، ولكنهم باءوا كذلك بالفشل الذريع، فقد نهض الأئمة الأعلام، ودونوا هذا العلم الشريف، وقعدوا له القواعد الأصلية التى تكشف الدخيل والمدسوس، وصانوا السنَّة من التحريف والتزييف.

ومازال الجهاد فى سبيل أعظم تراث فى هذه الدنيا موصولاً بهمم العلماء والباحثين، والكتاب والمفكرين من أبناء الإسلام وعلمائه، ورجال السنَّة فى كل جيل وفى كل عصر، وفى كل مكان.

وبحمد الله: قامت النهضات العلمية فى البلاد الإسلامية فى المعاهد والمدارس والجامعات مما يبشر بنجاح ونصر قريب، ونهضة كبرى فى الصناعة الحديثية، ودراسة أصول الحديث النبوى، وتحقيق مخطوطاته. نسأل الله تعالى: أن يكلل هذه الجهود بالتوفيق والنجاح وأن تتجاوب مع أصداء هذه النهضة جميع البلاد الإسلامية حفظاً للسنَّة وحراسة للتراث، وتبليغاً للدعوة.

ولنلق الآن بعض الضوء على خطوات النقد ومراحله لدى المحدثين لنتعرف على عنايتهم الفائقة فى تتبع قواعد الضبط والتحرى، حفاظاً على السنَّة الشريفة.

* * *

النقد عن المحدثين

لقد تمخضت بحوث المحدثين وجهودهم فى تدوين السنة النبوية الشريفة إلى علوم دقيقة، كانت بحق قمة ما وصل إليه الفكر البشرى فى نقد الرجال، ووَصْفهم الصحيح، وهى: أصح ما عرف فى التاريخ كله من القواعد العلمية السليمة للرواية.

وهى: قواعد ليس بعدها مجال للتثبت والتأكد والحيطة.

وهذه العلوم هى: ما تسمى بعلم أصول الحديث، أو: علم الحديث دراية، ذلك: أن علم الحديث ينقسم إلى قسمين:

* علم الحديث رواية: وهو: علم يعرف به ما أضيف إلى الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة.

* وعلم الحديث دراية: وهو: علم بقوانين يعرف بها أحوال السند والمتن، أو كما عرفه الحافظ ابن حجر: «معرفة القواعد المعرفة بحال الراوى والمروى».

وعلم أصول الحديث: نشأ مع نشأة الحديث، إذ كانوا يطلبون من الراوى التثبت، وينقدون المرويات.

وقد ازداد الحرص على هذا، منذ وقوع الفتن، فكانوا يقولون: «سموا لنا رجالكم». كما زاد الطلب أيضاً عندما قام ابن شهاب الزهرى بجمع الحديث من حامليه فى الدفاتر والصحف.

ثم بعد ذلك: كتب الامام الشافعى بعض المسائل فى كتابيه: «الرسالة» و«الأم».

وكان أول من ألف فى بعض بحوث هذا العلم، هو: الامام على بن المدينى، كما تكلم فى مسائله: البخارى ومسلم والترمذى، وقام الترمذى، فأشاع مسائل هذا العلم، وجمع بعضها فى خاتمة جامعه. فتدوين علوم الحديث

إذا ابتدأ فى أبواب، وفى بعض أنواع منه، إلا أن المؤلفات فى بادىء الأمر كانت غير جامعة لكل أنواعه فى كتب خاصة، ولا مستقلة قائمة بذاتها، وإنما تعرضوا لبحث هذه العلوم أثناء تأليفهم، وجمعهم للروايات. فمنهم من جعلها مقدمة لمؤلفه كما فعل الامام مسلم ومنهم من جعلها خاتمة تبين مراده من المصطلحات، كما صنع: الترمذى فى آخر جامعه، وعنى الإمام البخارى فألف كتبه فى التواريخ الثلاثة الكبير، والأوسط، والصغير.

كما ألف أيضاً فى تاريخ الرواة: الامام محمد بن سعد كتاب: «الطبقات الكبرى». وألف البعض فى الثقات: كأبى حاتم بن حبان. وخصص البعض مؤلفات فى الضعفاء والعلل ككتاب: «الضعفاء» للبخارى، وكتاب: «الضعفاء» للنسائى.

ورأى بعض العلماء أن هذه الكتب قد تضمنت اصطلاحات خاصة بأهل الحديث، وقواعد كثيرة لهم، يعرف بها المقبول والمردود، ففكروا فى تخليصها من هذه الكتب، وجمعها فى علم خاص، وتدوينها فى كتب مستقلة، وكان ذلك فى القرن الرابع الهجرى، حيث نضجت العلوم واستقر الاصطلاح.

فألف القاضى أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزى المتوفى سنة ٣٦٠ هجرية كتابه: «المحدث الفاصل بين الراوى والواعى» فجمع كثيراً من أنواع هذا العلم، وكان أول من وضع كتاباً مستقلا فى علوم الحديث، ولكنه لم يستوعب جميع بحوثه.

ثم صنف الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابورى المتوفى سنة ٤٠٥ هـ كتابه: (معرفة علوم الحديث) ولكنه لم يهذب ولم يرتب.

ثم ألف الحافظ الخطيب أبو بكر البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ كتابه فى أصول الحديث، سماه «الجامع لآداب الشيخ والسامع»... ثم كثر التأليف بعد ذلك.

وتفرعت الدراسة فى هذا المجال الواسع من المعرفة إلى علوم كثيرة من أهمها: «علم الجرح والتعديل».

وقد أدى حرص العلماء على معرفة أحوال الرواة لتمييز الصحيح من غيره إلى نشأة «علم الجرح والتعديل»، أو علم «ميزان الرجال». وهو علم يبحث عن الرواة من حيث ما ورد فى شأنهم من تعديل يزينهم، أو تجريح يشينهم.

وتكلم فى هذا العلم كثيرون من عهد الصحابة المتأخرين من العلماء، فمن الصحابة: ابن عباس وعبادة بن الصامت.

ومن التابعين: سعيد بن المسيب والشعبى.

وأما ابتداء التصنيف ووضع الكتب فى الجرح والتعديل فقد كان بعد ذلك. وكان من أوائل الذين ألفوا فى هذا العلم: «الإمام يحيى بن معين» و«الإمام أحمد بن حنبل» و«الإمام محمد بن سعد» و«الإمام البخارى» و«الإمام مسلم» و«الإمام أبو داود» و«الإمام النسائى».

ثم كثر التأليف بعد ذلك. وممن كتب فى الثقات والضعفاء: أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب بن إسحاق السعدى الجوزجانى المتوفى سنة تسع وخمسين ومائتين.

«والتعديل» هو وصف الراوى بما يقتضى قبول ما يرويه والعمل به، ويدل عليه قول الرسول ﷺ: «نعم الرجل عبد الله - يعنى ابن عمر - لو كان يصلى من الليل».

والجرح: هو وصف الراوى بما يقتضى عدم قبول روايته.

ولما كان الجرح ضرورياً فى الدين، وترتبط معرفة الرجال به، لكشف أحوال الكذابين، والوضاعين والفسقة كان جائزاً فى الإسلام، لما يترتب عليه من صيانة الشريعة الإسلامية من الدس والوضع، وتمييز العادل من الفاسق، والصادق من الكاذب، والضابط من غيره.

ويدل على جواز الجرح بل وعلى وجوبه: قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾ [الحجرات : ٦].

ومن السنة: ما روى عن عائشة رضى الله عنها: (أن رجلا استأذن على النبى ﷺ، فقال: (ائذنوا له بئس أخو العشيرة) متفق عليه.

وما رواه البخارى، عن عائشة رضى الله عنه قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما أظن فلانا وفلانا يعرفان من ديننا شيئا» قال الليث بن سعد أحد رواة هذا الحديث: هذان الرجلان كانا من المنافقين.

ومما ذكره الإمام النووى في كتابه: «رياض الصالحين» من أسباب إباحة الغيبة، لغرض صحيح شرعى، لا يمكن الوصول إليه إلا بها:

تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، وذلك من وجوه منها: جرح المجروحين من الرواة والشهود، وذلك جائز بإجماع المسلمين بل واجب للحاجة.

ومنها: المشاورة فى مصاهرة إنسان أو مشاركته أو إيداعه أو معاملته أو مجاورته أو غير ذلك. وعلى المشاور، ألا يخفى حاله، بل يذكر المساوىء التى فيه بنية النصيحة.

وصاغ المحدثون شروطاً وقواعد للنقد، وجعلوا كلا من الجرح والتعديل مراتب.

كما اشترطوا لمن يتصدى لنقد الرجال، وللجرح والتعديل أن يكون عدلا ضابطا، عالماً بأسباب الجرح والتعديل، حتى لا يترتب على حكمه خطأ أو تقصير، فيعدل من ليس أهلا للعدالة، أو يجرح من ليس مجرحا.

وأن يكون عالماً تقيا ورعا، مجرداً من التعصب والأهواء حتى لا يميل إلى جانب أحد من الناس، فيحكم له، أو يتحامل على آخر فيحكم عليه ويجرحه، فهو بمنزلة القاضى العادل الذى يتحرى الحقيقة، والصواب، ليحكم بما يرضى الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام. كما اشترطوا فيمن يتصدى للتجريح والتعديل: أن يكون ذا اطلاع واسع، وبحث عميق طويل، وخبرة قوية، وعلم

بطبائع النفوس البشرية، وغير ذلك من الأمور التى تساعده على الوصول إلى وجه الحق، فلا يدلى برأيه فى النقد دون بينة ودليل، أو بحث وتنقيب. بل عليه أن يتورع فيما يقول، وأن يتقى الله فيما يتصدى له من حكم، حذرا من انتهاك الأعراض، وتجريح الناس والقدح فيهم.

ويقول الحافظ ابن حجر: حق على المحدث أن يتورع فيما يرويه، وأن يسأل أهل المعرفة والورع، ليعينوه على إيضاح مروياته.. ولا سبيل إلى أن يصير العارف الذى يزكى نقلة الأخبار ويجرحهم جهبذا إلا بإدمان الطلب والفحص عن هذا الشأن.

* * *